مقالة

استلهاماً بالشمس السعودية

بقلم سلطان سعود القاسمي

مُعلّم ومقنّنٍ فنّي، وباحث
وكاتبٌ عمود

في عام 2016، طرح المخرج السينمائي محمود صباغ، المُقيم في جدة، فيلمه «بركة يقابل بركة» الذي حظي بحفاوة كبيرة حينذاك. أتذكر جيداً أنني شاهدت الفيلم باهتمام كبير، إذ كنت أعرف فريق عمل الفيلم منذ سنوات. لم تكن البراعة في رصد حياة ثنائي سعودي شاب أو الدراما التي تعرضها الشاشة ما لفت انتباهي حينذاك، بل شيء آخر غير متوقّع على الإطلاق.

ففي المشاهد الأولى من الفيلم، يلتقي بركة (الذي يلعب دوره هشام فقيه) وبيبي (فاطمة البنوي) في صالة فنية خلال افتتاح أحد المعارض التي دُعيا إليها. وأثناء وجودهما، ينجذب كلاهما إلى عمل تركيبي لأيمن يسري ديدبان يُسمى «محارم». يُدعى بركة بعد ذلك لزيارة منزل حبيبته الصيفي لمقابلة والدتها حيث يقع الثنائي على عمل «أشعة سينية» للفنان أحمد ماطر. تقول صاحبة المنزل لضيفها الذي بدا أنّ لديه ملاحظات على القطعة، إنّ «هذا العمل الفنّي لا يُقدَّر بثمن».

باعتباري شخصاً تابع الفنّ السعودي على مدى أكثر من عقد، كانت مشاهدة أعمال فنّية مماثلة على الشاشة بمثابة لحظة تدعو للتأمّل والتفكير. إذ إنّ الفنّ المعروض في «بركة يقابل بركة» يعكس فكرة مفادها أنّ هذا منزل سعودي، عصري ومتناغم مع محيطه المعاصر والأحداث الجارية. بالنسبة إلى هذا الجيل من السعوديين، الفنّ مختلف، فصانعو الأفلام والممثلون والمطربون وفنّانو الأداء، جميعهم يقدّرون أعمال بعضهم البعض، المصنوعة بأيديهم، ومن أجل بعضهم البعض. إنّها انعكاس لهويتهم الوطنية واعتزازهم بالصناعة والمواهب المحلية.

في العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين، برز تقبّل أوسع للمشهد الفنّي السعودي، ليس فقط من قبل مقتني الأعمال الفنّية الشباب أو الجمهور من عامة الناس، بل بات الفنّ السعودي أداة لتعزيز الدبلوماسية. على سبيل

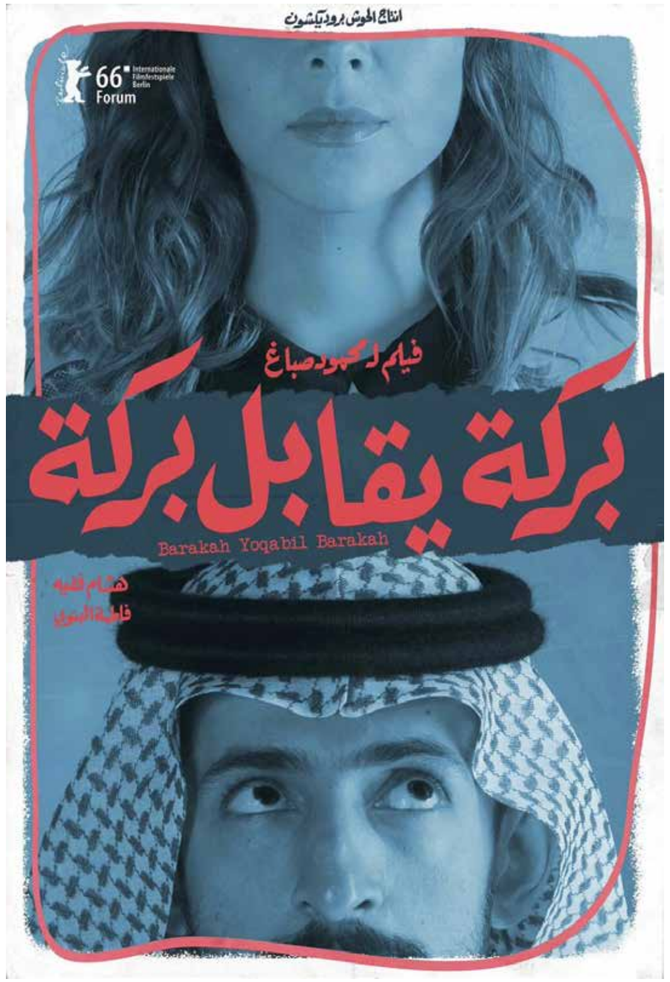

ملصق فيلم «بركة يقابل بركة». 2016. بإذن من «شندي»

المثال، بدأ قادة المملكة، خلال الزيارات الرسمية، في استبدال الهدايا الملكية الخليجية التقليدية المتمثلة في سيف ذهبي أو مركب شراعي خشبي بأعمال فنّية سعودية معاصرة. هذا ما حدث خلال زيارة صاحب السموّ الملكي الأمير محمد بن سلمان بن عبد العزيز، ولي العهد ورئيس مجلس وزراء المملكة العربية السعودية، إلى بكين في سبتمبر 2016، إذ أهدى صاحب السمو الملكي الرئيس الصيني شي جين بينغ عملاً للفنّان أحمد ماطر يُصوّر رحلة البحّار الصيني المسلم تشنغ خه إلى مكّة في القرن الخامس عشر. وعندما استضافت القيادة السعودية زعماء الخليج والأردن والعراق ومصر إلى جانب الرئيس الأميركي جو بايدن في صيف 2022، كُلِّفت الفنّانة السعودية لولوة الحمود بصناعة طاولة خشبية تعكس مثلثاتها التي تدور صوب الخارج «التغييرات التي تحدث في المملكة العربية السعودية».

لا بدّ من التشديد هنا على أنّ هذا الاعتراف الذي طال انتظاره بالفنّ السعودي المعاصر متجذّر في عقود من الإبداع والنضال والمنح الدراسية وبناء الشبكات، سواء من قبل الفنّانين السعوديين أو أقرانهم في المنطقة. لقد وثّقت الباحثة مها السنان جزءاً كبيراً من حركة الفنّ الحديث في المملكة. وهي تشير إلى أنّ عام 1958 شهد أول معرض فنّي عام في المملكة العربية السعودية. تلا ذلك تفاعل ملحوظ مع مبدعين عرب آخرين خلال حقبة الستينيات، يوم انتقل الفنّانان العراقيان سعدي الكعبي وعامر العبيدي إلى الرياض والطائف على التوالي لتدريس الفنّ، بينما درَّست الفنّانة المصرية الرائدة نازك حمدي (1926–2019) في «جامعة الملك عبد العزيز» في جدة على مدى خمس سنوات. كذلك، بدأ فنّانون من المملكة بالسفر إلى الخارج لتوسيع نطاق تعليمهم وآفاقهم، من بينهم عبد الله الشيخ الذي ذهب إلى العراق، وصفية بن زقر ومحمد السليم والفنّانة الرائدة منيرة موصلي إلى مصر. وساعدت الثروة النفطية الحكومة السعودية في تمويل منح دراسية لطلاب الفنون للسفر إلى أهم المراكز الفنّية في الخارج، وكان من بين المستفيدين عبد الحليم رضوي الذي أكمل دراسته في أكاديمية الفنون الجميلة في روما، والدكتورة منى المنجد التي توجّهت إلى الجامعة الأميركية في بيروت.

حتى مع تدهور الوضع الجيوسياسي منذ عام 1979، استمر الفنّانون السعوديون في الازدهار والتطوّر. في ذلك العام تحديداً، أسّس محمد السليم «دار الفنون السعودية» في الرياض، لتصبح فضاء مهماً ارتاده الفنانون للتلاقي وتبادل الأفكار. وقبل سنوات من تلك اللحظة، وتحديداً في عام 1976، أعلن الفنّان: «سأتمسّك بالطريق الصحيح مسترشداً ومستلهماً بالشمس السعودية نحو الفنّ السعودي الأصيل». [1]

مفهوم «فنّ سعودي أصيل معاصر مستلهم من الشمس السعودية» هو الذي أرشد أجيالاً من فنّاني المملكة خلال بحثهم في داخل ثقافاتهم عن الإلهام. وتماماً مثل «دائرية» الكويتي خليفة القطان، ومدرسة «البُعد الواحد» للعراقي شاكر حسن آل سعيد، ومدرسة «البلورية» للسودانية كمالا إبراهيم إسحق، وحركة «أوشام» الجزائرية، و«حروفية» العراقية مديحة عمر، فإن «أفقية» السعودي محمد السليم التي وضعت الوحدة الزخرفية المرتبطة بفن الخطّ محل العناصر الصحراوية في المناظر الطبيعية، استمدّت إلهامها من تقاليد وتراث المملكة الغني. يُغطي ذلك سلسلة كاملة من المرجعيّات الثقافية، التي تراوح بين الهندسة المعمارية والتصميم العاميّ وبين المنسوجات والخزف والأعمال الخشبية. خلاصة أسلوبية وطنية خضعت لتمحيص وتقدير قيمتها الثقافية، في ظلّ الوتيرة السريعة للتحديث وتطوير البنية التحتية التي أحدثت تحوّلات كبيرة في المملكة في العقود الأخيرة ولا تزال تأثيراتها مستمرّة حتى اليوم. لكن ما الذي يجعل الفنّ «سعوديّاً»؟ كيف يمكن للمرء أن يبدع فنّاً متجذراً في السياق المحلي، ومرتبطاً به، ويُعبّر عن هوية وطنية متفردة؟ هذا هو السؤال الذي يواصل الممارسون الثقافيون في مختلف القطاعات والتخصصات طرحه.

1 صادق، غ.، (2020): الفنّانون السعوديون الذين مهدوا الطريق، مجلة إثرائيات، تم الاطلاع عليه 2022، تمّت استعادته من: https://www.ithra.com/en/news/saudi-artists-who-paved-way/

صاحب السمو الملكي الأمير محمد بن سلمان بن عبد العزيز آل سعود، ولي العهد، رئيس مجلس الوزراء مستضيفاً قادة عشر دول في قصر السلام في جدة يوم 15 يوليو 2022. الطاولة من تصميم لولوة الحمود. بإذن من الفنانة

كجزء من «رؤية السعودية 2030»، التي تمثّل الخطّة الاقتصادية والاجتماعية للمملكة للسنوات المقبلة، تعترف الدولة السعودية بأهميّة الفنّ كمصدر للتنمية الاقتصادية، وخصوصاً تكامله مع قطاع السياحة المزدهر. هناك الكثير من المتاحف المخطّط افتتاحها في أجزاء مختلفة من المملكة، بعضها قيد التطوير وبعضها الآخر قيد الدراسة (راجع ص xxx). لن تجتذب هذه المرافق الزوار السعوديين من داخل البلاد فحسب، وهو ما تركّز عليه الحكومة بشكل خاص، بل ستجذب أيضاً السياح الإقليميين والعالميين الباحثين عن تجربة مختلفة عن تلك التي تقدمها الوجهات المحتملة الأخرى. لا شك في أنّ ما ستوفّره هذه المتاحف الجديدة من تسليط الضوء على الفنّ والثقافة السعوديين، سينعكس على عملية التقدير الفنّي وعلى قيمة الأعمال الفنّية السعودية المعاصرة، خصوصاً في سوق الفنّ الدولي.

لقد حظي الفنّ السعودي بالفعل باهتمام كبير في المزادات ومبيعات الصالات الفنية منذ سنوات. في عام 2011، بيع عمل عبد الناصر غارم التركيبي للقبة الذهبية «رسالة/ رسول» بمبلغ قياسي في ذلك الوقت، بلغ 842.500 دولار أميركي، وسط تصفيق كبير في مزاد «كريستيز» في دبي. وكان حتى ذلك الوقت يُعدّ أعلى سعر حققه عمل لفنّان عربي على قيد الحياة. يزداد سوق الفنّ السعودي قوةً، لكن ذلك ليس سوى البداية، وفقاً لقسورة حافظ، مؤسس صالة «حافظ». يقول: «تمثّل أسعار اليوم جزءاً ضئيلاً مما نتوقع أن تكون عليه الأسعار في غضون عشر سنوات» ويضيف: «ببساطة لأن أسعار اليوم، التي يعتبرها البعض باهظة، هي انعكاس لسوق ناشئة». تعدّ ندرة أعمال الفنّانين الذين يعتبرهم كثيرون من الرواد عاملاً خاصّاً في هذه العملية. قال لي حافظ: «لا أعتقد أنّ أحداً يدرك مدى ندرة هذه الأعمال». ويُكمل: «معظم الممارسين في فترة الحداثة، إن لم يكن جميعهم، كانوا يعملون في وظائف أخرى. لذا فما هو موجود قليل جداً».

يبقى أن نراقب أداء الأعمال الفنّية السعودية المعاصرة في السوق على المدى الطويل، لكن هناك تطورات أخرى أكثر أهمية، يتمحور أحدها حول زيادة إتاحة وإبراز الفنّ للجمهور السعودي، ودوره في تعزيز الهوية الوطنية. في عهد الملك عبد الله، بدأت المملكة العربية السعودية في عام 2005 الاحتفال بأول عطلة وطنية عبر إعلان 23 سبتمبر يوماً وطنيّاً. إنه اليوم الذي ينزل فيه المواطنون السعوديون بأعداد كبيرة إلى الشوارع، ملوّحين بأعلامهم بفخر، بل إنّهم يلوّنون وجوههم باللون الأخضر. يُعدّ خلق رموز ثقافية تخاطب السعوديين جميعاً، بغض النظر عن مشاربهم، جزءاً أساسيّاً من تعزيز الروابط المشتركة في مختلف أجزاء البلاد وتعزيز مفهوم الأمة السعودية؛ ويمكن أن يشكّل الفنّ جزءاً مهمّاً في العملية.

وعلى الصعيد الدولي، يُعدّ الفنّ السعودي أداةً من أدوات القوة الناعمة التي يمكنها المساهمة في تبديد المفاهيم الخاطئة عن المملكة وتكوين صورة عن مجتمع تقدمي ومنفتح، وهو أمر تحرص عليه القيادة السعودية. إن القوة الاقتصادية والمالية التي تتمتّع بها المملكة كعضو في مجموعة العشرين، وكواحدة من ذوات أكبر الصناديق السيادية والاحتياطيات النفطية في العالم، ونفوذها السياسي كعضو مؤسس في كل من الأمم المتحدة وجامعة الدول العربية، فضلاً عن كونها الدولة المضيفة للأمانة العامة لمجلس التعاون لدول الخليج العربية، ومكانتها الإسلامية، تعني أنّ أي حركة في المجال الثقافي السعودي، ستترك حتماً تبعاتها على المنطقة ككلّ. تستفيد المملكة العربية السعودية أيضاً من عدد كبير من الأشخاص الموهوبين والمتعلمين الذين باتوا أكثر دراية بالفنون، بفضل الإنترنت والفعاليات المتعددة التي جرت في البلاد على مدى العقدين الماضيين، من بينها الفعاليات الضخمة المُخصصة للفنّ العام، مثل «نور الرياض» و«بينالي الدرعية للفنّ المعاصر». يُنظر إلى الفنون، عن استحقاق، على أنها توفّر مجموعة من الفرص، ليست فقط فرصاً اقتصادية ومهنية، ولكن أيضاً فرص التنمية الشخصية والإنجاز والرفاه، وأنا أرى حاليّاً أنّ المشهد الفنّي السعودي هو المدّ الصاعد في المنطقة الذي يمكنه حمل جميع السفن.

من اليسار إلى اليمين: «نوافذ زرقاء» (2022) لريم الناصر، و «زهرة رانغ بنوم» (2015) لسوبيب بيتش، و «تعال ودعني أداوي جروحك» (2020) لدانا عورتاني في نسخة 2024 من «بينالي الدرعية للفنّ المعاصر». تصوير أليساندرو برازيل. بإذن من «مؤسسة بينالي الدرعية»